كشاجم

للأستاذ عبد الجواد الطيب

– ٣ –

إذا كنا قد تحدثنا فى المقال السابق عن ثقافة الرجل ، فما يتصل بهـذا الوضوع أن نعرف شيئا عن أساتذته وتلاميذه ، أو من تأثر بهم وأفاد منهم ، وإن لم يبلغوا مرتبة الأستاذية ،ومن تأثروا به ، وإن لم يكونوا بالفعل تلاميذه .

ومما يؤسف له ، أن مرجعا من المراجع التى بين أيدينا لم يحدثنا عن شىء من ذلك يذكر ، حتى ليحار المرء فيما نسبوه إليه من ألوان العلم والمعرفة ، دون أن يشيروا — ولو إشارة عابرة — إلى بعض مصادر هذه المعرفة وأصولها !.

وإذا كانت هذه حال المراجع التى ترجمت للشاعر ، فليس لدينا إذن إلا أن نستهدى شعره عساه أن يوصلنا إلى شىء مما نبتغيه .

يحدثنا شعر كشاجم أنه قد اتصل ببعض الأطباء والمنجمين من معاصريه وقد مدحهم وأثنى على علمهم وإنتاجهم ، ومن هؤلاء أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار ، الذى أثنى عليه كشاجم حتى بعد وفاته وذكر كتابه المعروف «زاد المسافر»

أبا جعفر أبقيت حيا وميتا ... مفاخر فى ظهر الزمان عظاما
رأيت على زاد المسافر عندنا ... من الناظرين العارفين زحاما[1]

ثم هذا الأخ الصديق الذى يقول فيه :

الحمد لله قد وجدت أخا ... لست مدى الدهر مثله واجد
أسكن فى صحتى إليه فإن ... مرضت كان الطبيب والعائد
طبايعيا منجما جــــدلا ... يجمع منه الكثير فى واحد[2]

فإنه وإن كانت صلة الشاعر بهذين وأمثالهما لا تبلغ أن تكون صلة الأستاذ والتلميذ، فإنهما على كل حال صلة الصديق بالصديق. والإنسان قد يفيد من معارف الإخوان والأصدقاء ، لا من طريق التعليم والتعلم ، وإنما من طريق المصادفات والمناسبات التى يتطرق إليها الحديث — والحديث ذو شجون — فتحصل الإفادة والاستفادة من طريق غير مباشر .

وليس لنا أن نقلل من قيمة هذا الاتصال كوسيلة من وسائل الثقافة لها أهميتها التى تزيد أو تنقص تبعا للظروف والملابسات ، ولكنها لا يمكن أن تتلاشى أو تنعدم ، فنحن نرى أن حافظ إبراهيم كان من المصادر الهامة فى ثقافته اتصاله بالأستاذ الإمام ، وسعد زغلول ، ومصطفى كامل ، وقاسم أمين .. فكان يفيد من مجالسهم فى النواحى العلمية والاجتماعية ، والسياسية ما ظهر أثره واضحا فى شعره . حقا إن صلات حافظ كانت من طراز آخر غير صلات كشاجم ، فجعلت من شاعر النيل شاعرا خلق لعصر جديد له نزعاته وميوله واتجاهاته التى لم تكن من سمات ذلك العصر الذى وجد فيه أمثال كشاجم

١ – طبقات الأطباء ط سنة ٠ ن١٣ ٢ – ٣٨
٢ – الديوان المخطوط « ٨٧٦ » دار الكتب ورقة ٤٧

بل كانوا قابضين على ناصية الأمور بيد من حديد .

على أنك لن تجد من الشعراء من قال فأضحك وأتى بالنكتة اللاذعة التى اشتهر بها الحشاشون غير إسماعيل صبرى فإنه قال :

يا آل مراكش وفد الغناء أتى ... من مصر يسعى لولاكم على الراس
لا تنكروا نكتة فى طى بعثته ... فالعود أحسن ما يهدى إلى (فاسى)

فى كلمة العود تورية. فهى بمعنى الآلة الموسيقية المعروفة وبمعنى عود البخور . وكذلك فى كلمة (فاسى) تورية فهى إما نسبة إلى مدينة فاس أو اسم فاعل لا يخفى معناه . وهكذا تناول إسماعيل صبرى الموضوع على هـذا الوجه المضحك . وقد بقيت صحيفة المؤيد تنشر هـذه المقطوعات مدة من الزمن ثم أقفلت الباب فجأة منوهة بما يصلها يوميا من الأشعار، ذاكرة أنها نشرت ما فيه الكفاية .

ولكن هذه الحملة التى شنها الكتاب والشعراء لم تغير من موقف سلطان مراكش ولم تترك فى نفسه أثرا. فقد جاءت الأخبار بوصف حفلات الغناء والرقص التى أقيمت فى البلاط السلطانى، كما وردت الأنباء بالهدايا والتحف التى وهبها السلطان لضيوفه

محمد سيد كيلانى

وقد اتصل شاعرنا بأديب من معاصريه هو أبو بكر الصنوبرى المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، وقد نشأت بينهما صداقة قوية تنعكس واضحة فى شعر الرجلين ، وإذا شئت أن تتبين شيئا من ذلك فانظر فى قول كشاجم :

لى من أبى بكر أخو ثقة ... لم أســـترب بإخائه قط
ما حال فى قرب ولا بعد ... سيان منه القرب والشحط
جسمان والروحان واحدة ... كالنقطتين حواهما خط (١)

* * *

أبا بكر اسلم للمودة والصفا ... فودك باق لا يحول ولا ينضو
متى يشق خل بالتغير من أخ ... خؤون فحظى من مودتك الخفض (٢)

فالصنوبرى — كما ترى « أخو ثقة » لحميمه كشاجم الذى لم يشك يوما فى إخلاصه ووفائه ، فهو لم يتغير ولم يتنكر لهذا الحب سواء نأت داره ، أو قرب مزاره ، وإنما هو مخلص فى كلا الأمرين ، وودّه باق فى كلا الحالين ، ولا يتحول ولا يحول ، فإن كانا فى عالم المادة جسمين اثنين ، فهما فى عالم الحب ، والمثالية فى الوفاء روح واحدة تجمع بين هذين الجسمين جميعا

ثم هما قد يتبعان كما يفعل الخلصاء حين يحدث بينهما مايدعو إلى ذلك ، فنجد هذه الأخوة بارزة فى هذا العتب الأخوى .

أتنسى زمانا كنا ... به كالماء والخمر
أليفين حليفين ... على الإعسار واليسر
مكبين على اللذات فى الصحو وفى السكر
ترى فى فلك الآداب كالشمس وكالبدر (٣)

ثم إن الصنوبرى عزيز على صاحبه أثير لديه الى الحد الذى يقول معه :

ولو سفكت يداه دم ابن عمى ... أو ابنى لم أثره ولم أعاده
ولو قتلى أراد قتلت نفسى ... له عمداً ليبلغ من مراده (٤)

ولا يخفى مافى هذين البيتين من مبالغة غير مقبولة ، ولكنهما على كل حال يصوران هذه الأخوة الوثيقة بين الرجلين .

١ — الديوان المخطوط رقم ٨٧٦ أدب « دار الكتب » ورقة ٩٥
٢ — نفس المرجع ورقة ٩٣
(٣) الديوان ورقة ٨ (٤) ورقة ٥١ ، ٥٢ ، ٣٥ ، ٣٨

وإذا كنت قد لمست آثار هذا الحب بادية فى شعر كشاجم ، فانظر معى فى قول صاحبه :

إذا انتسب الثقات إلى وفاء ... فحسبك بانتسابى وانتسابه
على أنى وإن حزت الثريا ... فلست أقاس بعد إلى ترابه
ولو أقسمت أن المجد شىء ... له دون البرية لم أحابه
خليل كنت إن واريت شخصى ... رأت عيناك شخصى فى ثيابه
تحامى فى تنائيه ولكن ... حيائى حين يقرب فى اقترابه (١)

فأنت ترى أن الصنوبرى قد أسرف فى مجاملة صاحبه فلم يقتصر على أن غض من نفسه ورفع من قدر صديقه ، ولكنه لو أقسم أن المجد شىء قد خص به كشاجم دون العالمين ما حنث فى يمينه ، ولاحابى صاحبه ، وهذه لا شك مغالاة قد توحى — فى بعض جوانبها — بأن الامتزاج والاختلاط بين الصديقين لم يصلا إلى درجة يسقط معها هذا التكلف ، ولكن المسألة فى ذاتها ربما لا تعدو أن تكون مبالغة شاعر ولا تعنى شيئا غير الحفاوة بصاحبه والتعبير عن حبه له وتفانيه فى إكرامه ، كما يتفانى هو الآخر فى إعزازه وتكريمه ، ومع هذا فأنت تلمح — إلى جانب هذه المغالاة — آثار هذه الأخوة معتدلة مقبولة ، لا تكثر فيها ولا تزيد ، فإذا كان للثقات أن ينتسبوا إلى الوفاء فهما خير من ينتسب إليه ... فأنت إذا افتقدت أحدهما رأيته فى شخص صاحبه .

ولعل هذه العلاقة القوية بين الرجلين كان لها أثرها فى شعرهما ولا سيما فى شعر كشاجم ، الذى كان يجل صاحبه ، فقد كان — على ما يبدو — أكبر منه سنا ، وأشرف مهنة حينما اجتمعا فى بلاط سيف الدولة حيث كان كشاجم طباخه والصنوبرى خازنه . وربما دخل فى حسابنا — إلى حد ما — أنه يعلوه أيضا فى الأصل والمحتد ، فهذا عربى منسوب إلى ضبة (٢) بينما ذاك أعجمى (٣) .

ثم إن له عليه من الأيادى البيضاء ما يردده كشاجم فى شعره :

كم نعمة منه حليت بها ... لا الشنف بياضها ولا القرط
ويد له بيضاء ضاحية ... مثل اللآلة حاكها القبط

ولعل قائلا يقول : ما شأن هذا كله وتأثره بصاحبه فى

١ — ورقة ٥٣
٢ — تاريخ ابن عساكر طبقة ١٢٣٠ جراس ٤٥٦ . ٣ — ابن ميسر : أخبار مصر مخطوط « معهد الدراسات » رقم ٨٨٥٦ ورقة ٣١٣

الناحية الأدبية ؟ ولكن الواقع أن هذه الأشياء كلها تهيئ جوا نفسيا خاصا يلعب دوره في إكبار الرجل لصاحبه، وتأثره به، أو تأثره إياه، هذا إلى ما عساه أن يجده في صاحبه، أو في أدب صاحبه من محاسن يجدر — في نظره — احتذاؤها والنسج على منوالها، ولكن الجو النفسي يضفي عليها هالة تزيدها جمالا وجلالا، ومن هنا تدرك سر إعجاب كشاجم بأدب صاحبه وعلمه:

ذاكره أو جاوره مختبرا ... تر منه بحرا ماله شط

وجنان آداب مثمرة ... ما زانها أثل ولا خمط

* * *

ولعل النعم التي حلى بها كشاجم من صاحبه، والأيادي البيضاء الضاحية التي أسبغها عليه، والتي رددها كثيرا في شعره كما رأينا، لعلها لم تقف عند الناحية المادية وحدها، وإنما تعدتها إلى ما عساه أن يكون قد أفاده منه في الناحية الأدبية الصرفة، فأنت إن «ذاكرته» صاحبه وجدته البحر علما وأدبا، وإن «جاورته» وجدته البحر جودا وكرما، وهكذا نرى أن المسألة ليست مسألة المادة وحدها، وإنما هي مسألة العلم والأدب أيضا، وهكذا المعنى الذي نلمحه في شعر كشاجم إزاء صديقه الصنوبري نراه يصرح به تصريحا في مدحه للحسين بن علي التنوخي:

علمت عبدك أن يصعر خده ... كبرا وأبهة على أصحابه

بمواهب ضاعفن من أمواله ... ومذكرات زدن في آدابه

وإنا حين نشير إلى تأثر كشاجم بصاحبه الصنوبري هذه الإشارة الخاطفة، إنما نرجئ الكلام المفصل في ذلك إلى الحديث في شعر كشاجم فيما يلي ذلك من فصول، غير أننا نستطيع الآن أن نقول إن الصنوبري حين أفاد كشاجم من طريق إيجابي، أفاده أيضا من الناحية السلبية، فهو أحيانا ينتقد شعره ويكايده وليس من شك في أن هذا العمل من شأنه أن يطلع المرء على عيوبه التي قد تخفى عليه، ويدفعه عن طريق غير مباشر إلى سد هذا النقص، ومحاولة الوصول إلى الكمال:

وكايدني ولم أر قط أحلى ... من المشوق لفظا في كياده

معنى في انتقاد حلى شعري ... وفضل الشعر يظهر في انتقاده

ولو حاولت أن تزري ببدر ... طلبت له المعايب من سواده

* * *

ومهما يكن فإن الشخص الذي صرح كشاجم بأنه قد تلمذ عليه فعلا هو علي بن سليمان الأخفش النحوي المتوفى سنة ٣١٥هـ حين يقول في ثنايا قصيدة في مدحه:

وكم عنحني تأديبه المحض وتخريجه

ومن أولى بتقريظي ممن كنت خريجه

فيبدو من هذا أن كشاجم كان تلميذا للأخفش، وإذا علمنا أن الأخفش كان نحويا أكثر منه شيئا آخر، عرفنا أن كشاجم قد أصاب على يده شيئا من النحو إلا يكن كفيلا بأن يسلكه في عداد النحاة، فإنه يكفيه إلى الحد الذي يحتاجه الأديب ولا يستغني عنه، وقد يطالعك هذا الجانب النحوي من ثقافة الرجل في هذه الأبيات التي قالها متندرا بهذا الذي يدعي النحو، وليس من النحو في شيء:

تشبه في النحو بالأخفشين ... فجاء بأعجوبة مطرفه

ولم يسمع النحو لكنه ... قرا منه شيئا وقد صحفه

فإن لم يكن أخفش الناظرين فإن الفتى أخفش المرفه

وقد سمع الأخفش أبوى العباس ثعلبا والمبرد، وفضلا اليزيدي وأبا العيناء الضرير ... ودرس النحو واللغة وشيئا من الأدب ... ولكنه لم يتوفر على الدراسة الأدبية توفره على الدراسة النحوية. ومع هذا يذكر ياقوت في معجمه نقلا عن المرزباني في المقتبس: «لم يكن (الأخفش) بالمتسع في الرواية للأخبار والعلم بالنحو، وما علمته صنف شيئا ألبتة ولا قال شعرا، وكان إذا سئل عن مسائل النحو ضجر، وانتهر كثيراً من يواصل مسألته ويتابعها. وشهدته يوما وصار إليه رجل من حلوان كان يلزمه فحين رآه قال له:

حياك ربك أيها الحلواني ... ووقاك ما يأتي من الأزمان

ثم التفت وقال: ما نحن من الشعر إلا هذا وما جرى مجراه[1]

وهكذا يتبين لنا أن كشاجم لم يفد من أستاذه كثيراً وربما

---

١ — ياقوت: معجم الأدباء طبعة دار المأمون ١٣ / ٤٢٧